الاستشراق والمستشرقون(*)

للدكتور خليل سمعان

الاستشراق ايها السيدات والسادة موضوعه الشرق. ما هو «الشرق ؟»

في مفهومكم انتم الاوربامريكيو الاصل، الشرق هو كل ما هو شرقي بلدانكم... انظروا الى الخريطة المعلقة على الحائط امامكم. هنا امريكا وشرقها... أوربا وما يليها. هل تدخل القارة الاوربية في «شرقكم ؟» طبعا لا... انظروا الآن الى موقع مدينة القسطنطينية في البلاد التركية وما يليها الى الحدود البلغارية واليونانية. هذه المنطقة دخلت في بقعة الاسلام الجغرافية منذ نيف واربعمئة سنة على الأقل. انها في مفهومكم مدينة ومنطقة «شرقية»، اليس كذلك ؟ نعم وهذا خطأ. ان القسطنطينية وما يليها غربا حتى الحدود البلغارية واليونانية هي جغرافيا منطقة أوروبية صرفة.

ولأسألكم الآن. هل تعتبرون الدين الموسوى دينا شرقيا ؟ طبعا لا. والمسيحية، هل المسيحية دين شرقي ؟ طبعا لا. الاسلام والبوذية والشنتوية، الخ اديان شرقية ! وهذا ايضا خطأ. ان الدين الاسلامي الحنيف هو احد الاديان السماوية وثالثها قدما، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان الموسوية هي اقدمهم فالمسيحية فالاسلام.

وازيد فاقول ان الاسلام هو الدين السماوي الوحيد الذي ظهر في ضوء التاريخ الساطع، وان هذه الاديان الثلاثة ظهرت جميعها في المنطقة التي ترمزون اليها بالشرق. فهل يمكن ان نسمي الاسلام دينا شرقيا والموسوية والمسيحية سوى ذلك ؟

الاستنتاج الاول :

ان «الشرق» الذي هو موضوع الاستشراق والمستشرقين لا وجود له جغرافيا. هذا الشرق هو انجلترا وما يليها بالنسبة لامريكا — وعلي أن أذكركم انكم تدعون ولاية كاليفورنيا واخواتها «الغرب» وولاية نيويورك وما جاورها يدعوها الامريكان الكاليفورنيون «الشرق» — أما بالنسبة للهند والصين واليابان فان ما تدعونه بالشرق هو الغرب... فاذا ما امعنا النظر قليلا في هذا الموضوع نجد بانكم تدعون «الشرق» البلاد اللامسيحية وبالنسبة لمدعي «الاستشراق» في ايامنا هذه البلاد الاسلامية ومنها المنطقة الاوربية التي يدين سكانها بالاسلام. انها البلاد التي حاول ويحاول الاوروبامريكيون استعمارها بصرف النظر عن اوضاعها الروحية والاجتماعية. فالاوروبامريكيون المستعمرون لا يضيرهم كون فلسطين بلدا تعايش فيه المسلمون والمسيحيون وسواهم قرونا عديدة. انها بلاد عربية يدر استعمارها على الاوروبامريكيين كسبا «ماديا» واذا فهي من «الشرق» ولتستعمر !...

واذا، فبعرفكم انتم الاوربامريكيون، الشرق هو الشرق «الكافر» (إنْفِدَلْ، بالانكليزية) اي المنطقة التي لا يدين سكانها بالمسيحية أو اليهودية. ومن هنا احد اسباب العنصرية، داء اصيبت به المسيحية منذ زمن بعيد واليهودية منذ حوالي القرن، اي اعتبارا من ظهور الصهيونية على مسرح التاريخ.

المستشرقون، من هم المستشرقون : لقد عرَّفهم الاستاذ ادورد سعيد تعريفا علميا في كتابه الذي نشر باللغة الانجليزية في عام 1980 والذي عنوانه بالانجليزية «أورِيْنْتالِسْمْ». كما اشار اليهم الاستاذ عبد الله العروي في دراسة باللغة الفرنسية نشرت في باريس عند شركة ماسْپِرو في عام 1975، في مجلدين، فقال انهم

«historiens d'occasion : géographes à idées brillantes, fonctionnaires à prétentions scientifiques, militaires se piquant de culture, historiens de l'art refusant la spécialisation, et à niveau certes plus élevé, des historiens sans formation linguistique ou des linguists et archéologues sans formation historique ; les uns renvoyant aux autres, les premiers s'appuyant sur l'autorité des seconds, il se forme ainsi une conjuration qui fait circuler les hypothèses les plus aventurieuses pour finalement les imposer comme vérités acquises».

(*) محاضرة ألقيت على طلاب وأساتذة الدراسات العليا في جامعة ولاية نيويورك في بنغمتن بعد ظهر يوم الجمعة، 19 شباط 1982.

كما عرّفه حديثا الاستاذ عزيز العظمه في بحث باللغة الانجليزية نشر في المجلة الامريكية «أَرَبْ ستَديز كوارتَرلي» المجلد الثالث العدد الرابع لعام 1981 بعنوان

«The Articulation of Orientalism»

كما يلي : *«Orientalism is therefore a mode of apprehension and of perception, and not one of knowledge. It identifies themata of an Islamic nature, Hence the profusion of works Croce described as «sumptuous ignorance» : the multiplication of detail with little coherence beyond the litany of the Oriental itinerary joylessly recorded by Oriental philologists profoundly ignorant of the science of language, by historians profoundly ignorant of historiography, by students of literature profoundly ignorant of literature, and even anthropologists without much interest in the science of anthropology».*

أما أنا فلا أزيد على ما سبق سوى أن أقول بأن هنالك مستشرقين ومستشرقين، منهم العالم المثقف الذي يخدم العلم ومنهم المرتزق الذي يخدم اهداف سادته. فالأول هو من درس وتعمق وقرأ وحقق ولاحظ ووصف ما رآه بامانة وموضوعية علمية صحيحة. أما الثاني فانه درس فلم يتعمق وقرأ فلم يفقه ولاحظ فلم يرَ وكتب أو صرّح جاهلا سفيها ظالما، لامت كتابته وتصاريحه الى الموضوعية والعلم بصلة انه موظف يخدم سيده أو متزمت يخدم كهنته... وان ما لدينا من آثاره هو ما وصفه الفيلسوف الايطالي «كروتشيه» بالجهل الرائع — سَمْبْليوسْ إنْيورانْسْ.

ان مصيبة الاوروبامريكيين، ايها السيدات والسادة، هي ان تقدمهم الثقافي هو تقدم اساسه الكسب. فما يدركسبا على الاوروبامريكي يجتذبه : التكنولوجيا، الكتابة، السينما والتلفزة والصحافة وحتى العمل التربوي والوظيفة الحكومية بما في ذلك التجسس والجندية... فاذا نظرنا الى زمرة المرتزقين من مدعي «الاستشراق» وجدنا جهلا مقيما : اساتذة تاريخ (وعلوم سياسة واقتصاد وانتروبولوجية وآثار) الشرق الاوسط لا يقرؤون، واذا قرؤوا فبصعوبة، ولن يكتبوا، أو ينطقوا بحرف من العربية نطقا صحيحا ؛ وحتى بين اساتذة اللغة العربية من لا يعرف عن آداب اللغة التي يدَرِّس شيئا ومن اساتذة «حضارة الشرق الاوسط» من يتقن من لغات الشرق الاوسط العربية ولاشيء سواها... انها صحراء علمية قاحلة يراها القائمون على الحكم في البلاد الاوروبامريكية سرابا لا يلبثوا ان يدركوا خطأهم ولكن بعد ان تدفع البلاد ثمنه غاليا، ايران مثلا.

واذا، علينا ان نعترف بان الشرق هو مشرق الشمس والغرب مغربها، كان هذا بالنسبة لامريكيي كاليفورنيا أو نيويورك، لسكان اليابان أو الصين وحتى لنا نحن، طلاب واساتذة نقطن هذه البقعة من ولاية نيويورك.

المستشرقون اذا هم اساتذة، وكتاب، ومبشرون دينيون حقدوا ويحتدون على كل ما هو ليس من ايمانهم، وروائيون، ومصورون، وموظفو دول اوروبامريكية يرتزق اكثرهم من عمل، موضوعه الشرق الذي يتصورونه هم، يقدمون به كلاما أو كتابة (ابحاث ؟) أو عملا في خدمة مصالح أوطانهم الاقتصادي منها والمبدئي.

وفي هذا الصدد ربما سأل سائل : هل يُخطّأ جميع المستشرقين والكتاب والروائيين والصحفيين والمبشرين الدينيين وموظفي الدول الاوروبامريكية الذين يكسبون من خدمة معاهد وحكومات وشركات وطنية ؟ الجواب طبعا لا. انما يُخطّأ من يخطىء. وتسألون ولكن من هو الحَكَم في امر تخطئة المخطئين ؟ الجواب، الحكم هو الحقيقة والحقيقة تقاس بمقاييس اجتماعية تنطبق على المجتمع الذي ندرس ومقاييس دينية هي من صلب الدين الذي نحاول تفهمه. وكل ماشذّ عن هذا هو خطأ. وهنا أود ان اعترف امامكم بفضل الكثيرين من الاوربامريكيين وسواهم ممن اعتبر نفسه «مستشرقا» وعمل في خدمة العلم بموضوعية مجردة، هؤلاء هم علماء احترمهم العلم واحترمناهم نحن ونحترمهم، وسيحترمهم ويرجع الى ابحاثهم واعمالهم العلمية الجيل القادم من علماء العربية والاسلام وربما الاجيال الصاعدة... اذ تعلمون ان الاجتهاد العلمي ليس خالدا وان المجتهدين في العلم هم كذلك. كما ان هنالك من اخطأ ويخطىء في علمه وتعليمه وفي ابحاثه ومنشوراته التي تستعمل في التعليم. هؤلاء لايمكن للعلم ولنا ان نحترم اعمالهم اللاعلمية الخاطئة. وعلى سبيل المثال، استميح العذر فاحصر الاشارة الى «استشراق المستشرقين» في اعمال ثلاثة من زملائنا في جامعتنا هذه بالذات، فلا اعالج في هذه المحاضرة إعمال مرتزقة من خارج حرمنا الجامعي هذا من صهاينة ومبشرين وموظفي امبرياليات حديثة معروفة هنا وفي خارج هذه البلاد : سوف اشير الى بحث (هو واحد من كثير) للزميل الاستاذ رِتْشَرْدْ أنْتونْ، قسم الانثروبولوجيا، وهو موجود معنا في هذه القاعة. وحرصا على الاستفادة من الوقت، سوف اختصر فلا اشير الى سوى جمل قصيرة من بحث الاستاذ انتون الطويل الذي نشره عام 1968 في مجلة «أميركَنْ أنْثروبولوجِسْتْ»، المجلد رقم 70 صص 671 — 697، قال فيه :

*Arab Muslim «Women's propensity for sexual license is attributed to the animalistic impulses that move them. They seek out men «like locusts after corn» (Fuller 1961 : 47 (Anne H. Fuller : **Buarij Portrait of a Lebanese Village.** Cambridge, Mass, 1961)) One man in kufr al-Ma reported that he had seen two girls in the field simulating the sexual act. «What can you expect», another man interjected. «A woman is like a plough-animal ; she has no honor».*

يتحدث الزميل عن المرأة في القرى التي يدين سكانها بالاسلام !

هذا المقطع في مقال الدكتور انتون تطور بفضل «علم» الدكتور رونالْدْ كوهين الذي استقطبه في كتابه .

Dominance and Defiance - a study of marital instability in an Islamic African society. *Washington, D.C. 1971, page 93. «...Islamic thought conceives of women as being driven by inordinate sexuality. They are animalistic in their behavior They manifest inordinate aggressiveness. They are informed by evil forces. They bring discord to the body social. For all these reasons women constitute a threat to the group and its honor»*

ولا أود هنا أن أفند مطولا الافتراء على الاسلام والعرب بل اكتفي بالافادة بان الدكتورة ناديا ابو زهرة قد سبقتني ففندته وناقشته علميا في بحث طويل نُشر في المجلة الامريكية نفسها بعنوان

«On the Modesty of Women in Arab Muslim Villages : A Reply»

المجلد 72 لعام 1970، صص 1079 — 1088 — تبعته اجابة من نوع «عذر أقبح من ذنب» للدكتور انتون. هنا وفي هذا المقام اود ان الفت نظركم الى ان تعاليم الدين الاسلامي الحنيف، في قرآن كريم واحاديث نبوية شريفة وقياس واجماع تتعارض وما فَقِهَه الدكتور انتون منها وما لاحظه في قرية «كفر الما» الاردنية. ولقد اشرت الى بعض مراجع الدين الاسلامي المتعلقة بالمرأة ومقامها وحسن معاملتها ومساواتها في الانسانية والروحيات مع الرجل في محاضرة القيتها عليكم في هذه القاعة بالذات لسنوات اربع خلت نشر ملخصها في «مجلة الازهر» القاهرية، الجزء الثاني، السنة الخمسون، ربيع الآخر 1398هـ — ابريل 1978م صص 401 — 406...

الاسلام، ايها السيدات والسادة، والمرأة المسلمة براء من هذا الافتراء، وما عليكم انتم، اساتذة وطلاب، الا أن تطالعوا بامعان، وبمساعدة عالم مطلع، لا مرتزق، ممن قرأ العربية ودرسها علميا وقرأ القرآن الكريم والشرع ودرسه على يد علمائه، ان تطالعوا آداب الدين الاسلامي الحنيف قبل المغامرة بالقاء الكلام على عواهنه...

وقبل ان انتقل الى الجزء الثاني من موضوع هذه المحاضرة اود ان اقرر ان الخطأ علميا كان أو سوى ذلك، مصدره احد سببين، اما الجهل أو الخبث، وفي ما سأبحثه أمامكم الآن، أترك لكم حرية الاقرار.

كلكم يعرف الزميل الدكتور نورْمَنْ سْتِلْمَنْ، قسم التاريخ، وزوجه اللطيفة يديدا، مدرسة اللغة العبرية في جامعتنا. يديدا من أصل مراكشي تتكلم اللهجة المغربية وربما قرأت العربية بطلاقة وفهم يفوقان مقدرة زوجها على ذلك. وكلكم يعلم ولو عن طريق الاعلان ان الدكتور نورمن ستلمن قد طبع مؤخرا كتابا ضخما بعنوان

The Jews of Arab Lands-A History and Source Book. *New York, The Jewish Publication Society of America, 1979*

عند مؤسسة الجمعية الامريكية للمطبوعات اليهودية وطبعاً بمعاونة زوجه يديدا ؛

«... a joint, effort by us... she helped me translate several Arabic and Hebrew documents...»

وبهدى الدكتور نورمن ستلمن كتابه لاستاذه إسْ.دِ. غويْتايْنْ مؤلف كتاب ***S.D.Goitein : Jews and Arabs-Thier Contacts Through the Ages.*** *New York, Schocken Books (Paperbacks on Judaica)*

المطبوع عام 1955 والمعاد طبعه عام 1964 و 1974 عند مطبوعات شوكن اليهودية.

وكتاب الدكتور نورمن ستلمن يحتوي على 473 صفحة منها 107 صفحات بقلمه، مستندا الى ما كتبه استاذه غويتاين ومتوسعا فيه، وباقي الكتاب مقتطفات مترجمة من مصادر انجليزية وفرنسية وعبرية وعربية تؤيد بعض التأييد ما قاله استاذه ويقوله هو عن معاملة المسلمين العرب لليهود.

انني في سبيل كتابة نقد مفصل لهذا الكتاب ولذلك فلن اطيل الحديث عن مضمونه فيما عدا الاشارة الى رأي واحد فيه، وهو

«It has long been debated whether Muhammad's principal monotheist informants were Jews or Christians. Abraham Geiger... was the first to argue cogently for Jewish teachers... More recently, S.D. Goitien has advanced very convincing arguments in favor of sectarian Jewish influences. Unfortunately, our sources, which are exclusively Muslim... are silent on thit point...» Page 8.

أنتم أو بعضكم على الاقل تعلمون مكانة عيسى بن مريم في الاسلام ومرتبة امه مريم : انها مكانة رفيعة لا يفوقها مقام. اما في الديانة الموسوية فلا ذكر للاثنين. فهل يمكن ان تكون مكانة عيسى في الاسلام من «تعاليم» اليهود للرسول وتأثيرهم عليه ؟

الواقع ان هذا احد اخطاء الكتاب ؛ فمثلا عندما يُحدث الدكتور ستلمن عن «المدينة» يقول ص 9 *«...al-Madina (the district), probably was given to it by the Jews themselves... The traditional explanation that the name al-Madina is derived from Madinat al-Nabi (the town of the Prophet) is rejected by most Western scholars.*

ياناس : هل قرأتم عن «يثرب» أو « ي ث ر ب » في النقوش السبائية أو «يثربا/لاثريبا» في الكتاب السادس لتاريخ بْليني ؟ اين هذا من «علم» ستلمن و «ذي دِستْرِكْتْ» التي يبشر بها ؟..

ومن مآخذ هذا «التاريخ» الستلماني انه يتجاهل تمام التجاهل مذابح النصارى في نجران على يد يهود اليمن بامرة ذي نواس.. هنا اطرح السؤال : ما قيمة تاريخ للنازية اذا تجاهل مذابح اليهود والغجر والبولونيين وسواهم من ضحايا العهد الهتلري في المانيا ؟

اكتفي بهذا القدر الآن في نقد استشراق الزميل الدكتور نورمن ستلمن، لابدأ بالحديث عن كتاب وضعه الزميل الدكتور دون برتز في ايدي طلاب المدارس المتوسطة الامريكية. عنوان الكتاب (Don Peretz :) ***The Middle East : Selected Readings*** وقد نشرت أول طبعة منه عند *Boston, Houghton Mifflin Co., 1968*

في عام 1968. ونظرا لان الكتاب مصدر من مصادر تعرّف النشأ الامريكي على ما يدعى هنا بالشرق الاوسط، ونظرا لبساطة وقلة اختبار الصغار هؤلاء فانكم توافقونني على ان الموضوعية يجب ان تتبع كاملة تامة بدون اي نقص... ولكن، اقرؤوا معي ما اقتطفه الدكتور دون برتز وصفا للجندي المصري ومعنوياته، الصفحات 111 — 114

«No wonder then, that such a people (i.e., the Egyptian soldiers), so treated when in civilian life that every spark of manhood is crushed out of them, and so abused as soldiers that they have not even the courage of a crushed worm, which strives to sting the heel of its destroyer - no wonder such a people will not fight.»

وصحيح ان هامش الصفحة 111 من الكتيب يقول

*From **The Nation** (New York : **Evening Post** Publishing Co., Sept 28, 1882*

ولكن الخط صغير للغاية وليس هنالك رقم يدل على ان هذا السطر يشير الى ان المقال الملىء بمثل هذه الترهات عن الجيش المصري والجندي المصري يعود الى عام 1882. هذا الاستشراق وامثاله ادى الى ما يلي، اقتطفته من مجلة «تايم» 11 آذر مارس 1982، مختصر ما كتبه هنرى كسنجر، وزير خارجية امريكا سابقا ؛ الحديث عن حرب رمضان عام 1973

...«Tuesday, Oct. 9 (1973), Dinitz (Israel's Ambassador)... we met at 8 :20 a.m. in the white House. Dinitz had brought along his armed forces attaché, General Mordechai («Motta») Gur. Grimly, they explained that Israel's losses had been staggering, totally unexpected... Dinitz implored me to keep the numbres secret from everyone except the President. If they were known, the Arabe countries now standing aloof might join for the knockout blow. «p.34... Israel has suffered a strategic defeat...» p. 35

...لولا تدخل امريكا الفعلي (يصفه هنري كسنجر ادناه) لدخلت اسرائيل في خبر كان،

«Our airlift... was proceeding in stunning fashion... our Defense Department put on the sort performance no other country can match, carrying an average of about 50 tons of equipment each hour over a distance of 6,000 miles. In the first full day of the airlift, we had more than matched what the Soviet Union had put into Egypt, Syria and Iraq combined in all of the four previous days. 2 p. 36

واذا، ايعقل ان يوصف الجندي المصري بانه اقل قدر من الدودة التي لاتقدر على الحراك لعض كعب الرّجل التي تتحرك لسحقها.»

ايها السيدات والسادة

قد اكون قد اطلت الحديث... عن كتابات باقلام زملاء اعزاء علي وعليكم هي كتابات «استشراقية» تنقصها الموضوعية العلمية الصحيحة. وانني اذ قررت التحدث عن هؤلاء الزملاء قصدت من وراء ذلك الافادة بان التاريخ لا يرحم وان حبل الكذب قصير. هذا من جهة ومن جهة ثانية، شئت فتح باب النقاش في موضوع الكتابات الاستشراقية فلا تتكرر اندحارات امريكا كما جرى في الفيتنام وايران وحتى في العالم العربي، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار المكانة المرموقة التي كانت تتمتع بها الولايات المتحدة الامريكية في البلاد الاسلامية عامة والعربية خاصة قبل اصابتها بمرض النفوذ الصهيوني العضال ؛ كما رغبت في لفت نظر الزملاء الكتّاب الى اخطائهم السابقة.

ختاما، كنت قد اقترحت عليكم مطالعة كتابين للاستاذ الدكتور ادورد سعيد وستة ابحاث للسيدة روزماري صائغ والاساتذة انور عبد الملك، أحسن، العظمه، سمعان، وعبد اللطيف الطيباوي. يسرني اليوم ان افيدكم ان لائحة طويلة ببليوغرافية «الاستشراق والاسلام» قد نشرت في مجلة ***The Muslim World Book Review**, vol. 1, No. 4, Summer 1981, pp. 51-60* الصادرة في لندن، صص 51 — 60 فعليكم بها، وشكرا.